حتى ولو رأيناه يندفع نحو الطواحين الهوائية ليقاتلها باستماتة[٨١]. ومن هنا أيضاً نتقبل تلك اللوحات الفظيعة التي رسمها لنا «دوستويفسكي»، كما نتقبل شخصية العجوز «غرانده». ويجب ألا نخلط بين التطرف عند الواقعيين والتطرف عن الرومانتيكيين. فالتطرف عند هؤلاء يتخذ هدفاً في حد ذاته، أما التطرف عند أولئك فإنه يتخذ وسيلة لاستخراج «الأعمق والأبعد في السمات الإنسانية مع كل التناقضات المتضمنة فيها»[٨٢].

* * *

وقد يكون من نافل القول أن نذكر أن النماذج الحسية لا يتأتى خلقها إلا لذي خيال خصب، وذي ملاحظة دقيقة، وبصر نفاذ في النفس الإنسانية والحياة الاجتماعية، فبهذه الصفات يستطيع الكاتب أن يبدع شخصيات حية،وخاصة إذا كان يستطيع الخروج عن ذاتيته ليتقمص ذاتية شخصياته، على نحو ما كان يفعل «بالزاك» الذي يروي أنه كان يقول حين يستمع إلى أحاديث الناس وتصرفاتهم: «لمجرد استماعي إلى هؤلاء الناس يمكنني أن أحيا حياتهم فأشعر بأسمالهم على ظهري وبأحذيتهم المثقوبة في قدميَّ. تسري في نفسي أمانيهم وحاجاتهم أو بالأحرى تنتقل نفسي إلى نفوسهم فيتحقق إذ ذاك حلم اليقظان»[٨٣].

ومن المعلوم أن الكاتب حين يصل إلى هذه الدرجة من الإحساس بحياة شخصيته وحركتها وملامحها الخاصة بها يترك لها حرية التصرف واستقلال التفكير، في عمله الأدبي، وإذا ما حاول أن يسيطر عليها تمردت عليه. وهذا ما نراه عند بالزاك الذي كانت جل شخصياته تجسيداً لإدانة البرجوازية الأرستوقراطية والسخرية المرة منها، بالرغم من أنه هو نفسه ـ أي بالزاك ـ كان ذا نزعة بورجوازية ملكية ـ كما ألمحنا من قبل. وهذا ما جعل بعض النقاد يتهمونه ـ خطأ ـ بالتناقض[٨٤].